بيت من الشعر

ينقذ حياة أديب من الانتحار

قصة واقعية حدثت للأديب الكبير

الأستاذ كامل كيلانى

الأستاذ كامل كيلانى ، أديب معروف فى عالم الأدب والثقافة العربية . وهو ينحدر من أسرة عريقة فى المجد ، وادعة هادئة ، تحافظ ما استطاعت على التقاليد الشرقية ، بل تعد مضرب المثل فى التمسك بهذه التقاليد؛ وهم بحكم فطرتهم ومقتضى نشأتهم يألفون الهدوء والسكينة ، بل إنهم يستنكرون الأسفار والارتحال : فلم يتفق لهم ذات يوم أن غادروا القاهرة إلى ما سواها من مدن القطر ، ولست بمغال إذا قلت إنهم يرون الغربة وبعد الشقة فيما يتعدى حدود وطنهم من حى المنشية أو تخوم قسم الخليفة .

ولطالما كانت تجمعنى به الصدفة فى جلسة ممتعة ، فيقص على طرفاً من ماضى حياته وأصل نشأته ، فأصغى إلى حديثه فى كثير من العناية والاهتمام .

ولقد جلست إليه ذات يوم فى ساحة خلوية ، وبمعزل عن الضوضاء ، ومضينا نتجاذب أطراف الحديث فى شتى الشؤون ، إلى أن جرنا المقال — والحديث شجون — إلى ناحية مؤلمة من مفاوز الحياة ؛ فما أن أوغلنا فى هذا الحديث حتى رأيت صديقى ، وقد اربد وجهه وتقلصت أعصابه ، ثم سكت ساهما يمعن فى التفكير وقد وضع إحدى يديه على جبهته كأنه يجمع شتات أفكاره ، ثم سمعته يغمغم بين شفتيه كلمات متقطعة ، فأنكرت ما رأيت من حالة صديقى ولبثت أنظر إليه حدقاً مستطلعاً ، إلى أن تكشفت لى هذه الغمغمة عن بيت من الشعر : إذ سمعته يقول وقد انطلقت أسارير وجهه :

وإذا صبرت لجهد نازلة فكأنه ما مسك الجهد

فقلت له : وما شأن هذا البيت والحديث الذى نحن فيه ؟ فقال صديقى كامل وقد اعتدل فى جلسته ونشط للحديث .

لقدكان هذا الشعر سبباً فى انقاذ حياتى ، وأنا قاب قوسين من الموت ، بل هو الذى بعثنى حياً الى هذه الساعة ، حتى أجلس اليك هذه الجلسة ، وأقص عليك هذه القصة ، فسألته فى دهشة : وكيف كان ذلك ؟ فقال أعرنى سمعك . فأصغيت الى حديثه وكأن كل جوارحى آذان تسمع .

قال الصديق : كان ذلك منذ ثلاث عشرة سنة وكان سنى إذ ذاك لا يتجاوز السابعة عشرة . وكانت شقيقتى الصغرى قد تزوجت فى بلدة نائية من بلاد مديرية الفيوم ، ومضى على إقامتها هناك عام كامل . ولقد هبط علينا عامل البريد ذات يوم يحمل كتاباً منها تقول فيه : إنها حامل وإنها أوشكت أن تكون أماً ، فأثار هذا الخبر فى نفس والدتى كثيراً من الاهتمام ، وساورتها المخاوف ، وذهب بها الحنو الوالدى الى أبعد مداه ؛ فأخذت تفكر فى مصير ابنتها — وهى فى هذه الغربة — اذا تعسر بها الوضع أو أصيبت بحمى النفاس . . .

كانت هذه الهواجس شغلها الشاغل صباح مساء ، وهى بين لحظة وأخرى تسألنى وأختى الكبرى أن نسارع اليها وهى فى هذه الكربة فنعود بها الى القاهرة ، فكنت أطيب خاطرها وأزيل — ما استطعت — بعض ما علق بنفسها من هذه الوساوس ، فكأن ذلك كان يزيدها قلقاً ، ويؤجج فى صدرها وطيس الاضطراب .

وفى صبيحة ذات يوم رأيتها تغادر مضجعها مهمومة باكية ، وهى فى أشد ما يكون من القلق والاضطراب فسألتها وقد هاجنى ما رأيت : ماخطبك يا أماه ؟ قالت إن أختك الآن فى حالة تستدعى الرحمة والأشفاق ، وهى فى أشد الحاجة الينا ، فأسرع اليها ولا تتوا كل .

قلت ومن أنبأك بذلك ؟ قالت لقد قضيت طوال ليلتى فى أحلام مزعجة ، تتراءى أمام عينى كأنها حقائق أو مرئيات عنيفة ، وكلها تدور حول تلك البنية النائية ، وما تعانى من المشاق وتتجشم من الصعاب .

قلت : مونى عليك يا أماه فان هى الا أضغاث أحلام تتراءى لك فى نومك بتأثير تلك الانفعالات النفسانية التى تعانيها سحابة النهار فيما يهمك من شأن ابنتك .

قالت : إن رؤياى لا تخطىء ؛ ولا بد من رحيلك أنت وأختك الكبرى فى هذا اليوم.

كان ذلك فى أواخر الحرب العالمية الكبرى ؛ وكانت مصلحة السكة الحديد — بحكم الاقتصاد

فى تلك الظروف — قد ألغت كثيراً من القطارات حتى لم يبق غير قطارين يقومان ذهاباً وإياباً كل يوم بين القاهرة وبلاد الصعيد .

وكان لابد المسافر الى هذه البلدة ان يقطع طريقه اليها متنقلا بين ثلاث قطارات حتى اذا قطع آخر مرحلة من هذه الشقة ، ووصل الى محطة البلدة التى تقيم فيها ، يرى أمامه شقة أخرى يقطعها على صهوات الخيل ، أو ظهور الدواب ، فى ساعة وبعض ساعة .

ولا أطيل عليك الوصف ، فيما عانيناه من المشاق فى تلك الشقة التى كانت أول عهدنا بالاسفار . غير اننى استطيع أن أقول : إننى كنت طيلة هذه المرحلة أفكر فى أختى وقد بدأت أحلام أمى تتمثل لى كأنها حقائق ، حتى لقد ذهب بى الوهم الى حد أننى سوف لا أراها الا جثة هامدة .

هذه حالى وأنا الرجل الشاب الفتى فى ذلك الوقت ، فما ظنك بحالة أختى التى ترافقنى فى السفر ، وقد ظلت طوال الطريق واجمة ساكنة ترسل الدمع كالوابل الهتان .

وما زلنا على هذه الحال من القلق حتى وصلنا إلى حيث نقصد ، ومن ثم انجابت عن أفئدتنا تلك السحب القاتمة ، ولم تعد تساورنا المخاوف .

ولقد فرحت أختى بلقيانا وطمأنت خواطرنا ، وان كانت لم تجد بداً من السفر معنا اذ أنها كانت — كما تحس — على وشك أن تضع حملها بعد يومين أو ثلاثة .

ولم يشأ صهرى أن يدع زوجه — وهى على هذه الحالة — أن تقطع المسافة ما بين البلدة والمحطة على ظهر دابة ، بل استخص أحد أتباعه فى طلب «عربة البندر» وهى العربة الوحيدة هناك التى لايتحرك « ركابها » إلا فى مهمة خطيرة ، ولا يستطيع احتمال أجرها الا كل موسر واسع الثراء . ورحلنا عند الأصيل فلم ندرك محطة السكة الحديد إلا وقد داهمنا المساء وقد بدأ الظلام يتغلغل فى أحشاء الفضاء ، وقد ضرب بجرابه على الآفاق ، فساورتنى أيما وحشة وبدأت أتلمس الخطر المحدق بنا من جراء هذه المرحلة .

وما وصلنا الى المحطة حتى بدأت بوادر الألم تنتاب الشقيقة اليافعة التى أشرفت على الوضع ولم يكن لها سابق عهد بالحمل .

ففكرنا طويلا فى الأمر ، وقد رأت أختى المريضة المتعبة ألا مندوحة من العودة الى البلد ، وأيدتها الشقيقة الكبرى فى ذلك ، أما أنا فقد بقيت لحظة أفكر وأتردد .

غير انى مع هذا التردد كنت قد احتطت للأمر فيما إذا أزمعنا السفر ، فتركت شقيقتى تستريحان فى إحدى عربات الدرجة الثانية ، وذهبت فى طلب التذاكر للسفر .

وماعدت الى القطار حتى صفرت القاطرة إيذاناً بالتحرك فكنا أمام الأمر الواقع ، ولم نجد بداً من الاذعان لما شاءه القدر . وكان الخطب المحتوم وقد انطلق بنا القطار ينساب كالأفعوان فى جوف الظلام ، وساءت حال شقيقتى عن ذى قبل ، وبدأ الألم يتغلغل فى أحشائها فعمنا الأسى جميعاً ، ولم تبق لنايد فى رفع الخطر . وكأن الطبيعة قد أحست بما نكابده . فشاطرتنا الجزع وقد اربد وجهها والتحفت السماء بمئزر قاتم من السحب والغيوم .

ووقف بنا القطار فى محطة الفيوم فهممنا بالانتقال الى قطار الواسطة ، وكانت شقيقتى قد خارت قواها ، فلم تعد تقوى على المسير لتدرك القطار الثانى ، فضينا نعاونها ما استطعنا الى ذلك سبيلا حتى بلغنا غايتنا بشق الأنفس . وما كاد يتحرك القطار حتى بدأ الرعد يقصف ، والبرق يلمع ، والمطر يتقاطر رذاذاً ، ينذر بالعارض الهتان . وكان هذا التغيير الفجائى فى خلق الطبيعة قد زادنى اضطراباً وزاد شقيقتى وصباً على ما تعانيه من آلام ، فضقت ذرعاً باحتمال الخطب ومضيت أفكر فى مصير المريضة المتعبة اذا دهمها المخاض .

ومضيت أتمشى فى ردهة العربة بخطوات جنونية ، وقد قبضت إحدى يدى أدفع بها فى الفضاء ، كأنى أخاصم الطبيعة مهدداً أتوعد . . . وفى خلال السكون ، وفى غضون ذلك الاضطراب النفسانى الذى يتأجج فى صدرى ، سمعت ضجة عنيفة كادت تتقطع لها نياط قلبى ، فهرعت مهرولا نحو المقصورة التى تقيم فيها أختى ، فرأيتها تتلوى من الألم الممض غير أنها ما كادت تراانى حتى حاولت جهد ما تستطيع أن تتجلد ، فمضيت أستلهمها الصبر وأنا أعللها بكلمات متقطعة ليست بذات معنى ، وأنا لا أجد حولا لى ولا قوة لدفع الخطر .

وما وصلنا الى محطة الواسطة حتى كان الخطب قد ادلهم وتفاقم مصابى ، فندمت أيما ندم على أنى لم أتخلف فى مدينة الفيوم ، وقد شططت فى غلوائى حتى وصلنا الى هذه المحطة التى تكاد تكون قرية لا فندق فيها ولا مثوى للمبيت ، ولكنى مع هذا وذاك رأيت أن لا مندوحة من المغامرة حتى النهاية ، وأن نشرب كأس الجزع حتى الثمالة ، وتعاونت أنا

وشقيقتى الكبرى على حمل الحامل حتى وصلنا بها الى قطار الاكسبريس المكتظ بالركاب ولم يبق فيه قيد أنملة لواقف ، وكانت مقصورة الحريم عند نهاية عربة الدرجة الثانية متخمة بالسيدات اللواتى شعرن بحرج الموقف ، فأفسحن لشقيقتى مكاناً للجلوس .

أما أنا فقد لبثت واقفاً أنظر اليها فى ذهول ، وكأن وقع الخطب قد خدر مشاعرى فلم أعد أحس بما أرى وأسمع ، ولبثت ساهماً أهز رأسى أو أعبث بطرف سترتى فى حركة عصبية ، وكان البرد شديداً يهرأ الجسوم ، غير أن حرارة فؤادى كانت تطغى على ذلك الزمهرير فلم أحفل بنفسى ، وانطلقت الى خارج العربة ووقفت أمام الباب بعد أن استوثقت من ارتاجه ثم ألقيت برأسى على حاجز العربة الأمامى وانفجرت باكياً بينما كانت السماء تتفجر بوابل كأنه السيل العرم ، ورفعت وجهى نحو صفحة السماء المتجهمة التى كانت تقذفنى برصاص من البرد كأنه منطلق من فوهة مدفع رشاش ، وانطلقت من صدرى صيحة يأس قاتل ، ولم تكد تنبعث من صدرى تلك الصيحة حتى سمعت مثلها فى داخل العربة ، كأنه رجع الصدى لهذه الصيحة . فقذفت بنفسى إلى جوف العربة أستطلع الأمر ، وقد اخضلت ثيابى بالماء واكفهر وجهى بزرقة قاتمة من لفح الصقيع . . ورأتنى أختى على هذه الحالة فتفزعت لمرآى ، وكأنها نسيت ما تعانيه . أما شقيقتى الكبرى فكانت تذوب والهة لمصاب أخويها ، وهى تحاول جهد ما تستطيع أن تغالب الأحزان أو تكفكف الدموع . .

ورأيت شقيقتى تقاوم المخاض كمن يغالب القدر أو يناضل الموت فى ساعة الاحتضار . وملت اليها مؤاسياً وأنا لا أدرى ما أقول ، ولا أعرف أية حيلة لدفع الخطر . ولبثت هنيهة أئن فى صوت خافت ، ثم تسللت خارجا حيث اتخذت مكانى الأول أمام باب العربة غير شاعر بالبرد والمطر . .

وألقيت برأسى على حاجز العربة بعد أن أمسكت بقائمتيه ، ثم غصت فى بحر عميق وبدأت أحس كأنى هابط من علو شاهق ، وقد احتبست أنفاسى بتأثير الصدمة الهوائية من أثر السقوط ، وقد تراءت أمام عينى المغمضتين سهام طائشة من أنوار مختلفة الألوان كأنها الشهب والنيازك . وكان صوت القطار ، فى حركة انطلاقه ، يصل الى سمعى كأنه منبعث من بعد سحيق .

وطفقت أعود الى رشدى تدريجياً غير أنى أكاد لا أعرف كنه المكان الذى يحتوينى

بينما كان شبح أختى يتماثل أمامى ، وكأنى أراها بعين المخيلة وقد غالبها المخاض فوضعت حملها فى مكان عام من قطار السكة الحديد ، أو ماتت على أثر الوضع والنفاس .

تخيلت هذا الموقف فهالنى وقع المصاب، فانتفضت واقفا مرتعد الأوصال ، وأنا أفكر فيما عساه أن يكون من حالنا لو داهمنا ذلك الخطب ، ورأيت أختى - وهى فتاة الخدر ودرة صدف الحجاب - تضع حملها فى قطار غاص بالناس وعلى مرآى من الرجال والنساء ، تخيلت كل ذلك ففضلت أن أموت . أدركت كل ما تقدم وأيقنت أن هذه الساعة الرهيبة ستقضى على حياتى ، فأشفقت على نفسى من هول ذلك الموقف ، وهممت أستعجل ساعتى قبل أن أشهد هذه الفاجعة وعندئذ وطنت النفس على الانتحار .

وما كاد يجيش بنفسى هذا الخاطر ، حتى اندفعت فى وثبة عصبية كمن نشط من عقال ، حتى وصلت الى حافة المهبط الذى يقع ما بين العربتين. ولم يبق بينى وبين الموت غير قيد أنملة ، فما هى إلا حركة ضئيلة حتى أكون قد استويت على الأرض ممزقا تحت دواليب القطار .

وترويت قليلا ، ثم أحجمت برهة، ولكنى عدت فهممت وحاولت أن أقذف بنفسى ولكن صورة شقيقتى تمثلت لى فى هذه اللحظة ، فتراجعت خطوتين ثم أسرعت اليها لأتزود منها بآخر نظرة . .

كانت أختى قد أشرفت على اللحظة الأخيرة ، ولم يبق فى قوس احتمالها أقل منزع . ونظرت إلى ساعتى فاذا هى تنبئنى بأنه لم يزل باقياً على وصولنا الى العاصمة نصف ساعة ولم يبق فى مقدور المتمخضة احتمال لربع لحظة ، وعندئذ عاودتنى فكرة الانتحار ووقفت وقفتى الأولى خارج العربة، وقد توترت أعصابى حتى خلتنى سأنفجر كالقذيفة، وقد تفككت أوصالى متناثرة فى الفضاء . وبدأت أعصابى تتأثر بقرقعة حركة القطار التى كانت متزنه كأنها توقيع موسيقى عنيف وبدأت أحس تلك القرقعة المتزنة كأنها تنبعث من رأسى ، بل خلت أن كل ما احتوانى من العوالم الطبيعية كان يشارك القطار فى ارسال هذا الصوت الموسيقى المتزن أو تردد صداه .

فالجبال التى تقع على جانبى الوادى ، كان ينبعث منها ذلك الصوت ، والرعد القاصف الذى كاد يطغى على صوت القاطرة كان يرسل هذه الحركة . والسحب المتكاثفة التى كانت تحجب القمر كانت ترى كأنها ترتطم ببعضها فتحدث صاصلة على ايقاع صوت القطار . وكنت أرى

الجبال كأنها تميد متزعزعة فتطبق علينا من الجانبين ، أو تقذفنا بالصخور والجنادل والسحب ، ستنفجر فترسل الينا النار والحمم .

فثارت فى نفسى تلك الثورة الهائلة ، فاندفعت نحو الهوة بينما كان وميض البرق ينعكس على الأرض التى يطويها القطار ، فينير لى طريق الأبدية . وقذفت بنفسى وقد شعرت بشبه اغماء لولا أننى أحسست كأن يداً تجذبنى من طرف سترتى ، فلبثت لحظة معلقاً بتلك القبضة وقد مالت رأسى نحو الأرض . وكأن القطار قد أدرك مصابنا وألم بسر بعض من يحمل ، فأسرع فى انطلاقه ، بينما كانت تلك الحركات المتزنة فى القطار تتزايد بتزايد السرعة ، وقد تجلت لى واضحة كأنها أناشيد ترددها الملائكة او الشياطين ، وكأن هذه الأصوات الموسيقية العنيفة المتمردة تنطق منشدة بيتاً من الشعر تتغنى به الجبال والسماء والخليقة جميعاً على ايقاع صوت القطار ، وكأنها كانت تقول :

وإذا صبرت لجهد نازلة فكأنه ما مسك الجهد

ثبت الى رشدى فرأيتنى أردد هذا البيت على إيقاع قرقعة دواليب العربات ، وكأن ما كان يصل الى أذنى من هذا الغناء ، هو ما كان ينبعث من صدرى . فتراجعت خطوتين وتلفت خلفى أتبين تلك اليد التى قبضت على سترتى ، فاذا هى أكرة باب العربة التى اشتبكت بجيب السترة فحالت دون سقوطى ، كما نبهنى ذلك البيت من الشعر الى بصيص من أمل .

ونظرت الى الساعة فأدركت أننا على مسافة عشر دقائق من ساحل النجاة ، فأمسكت بقائمتى الحاجز الأمامى أدفعها بكلتا يدى ، وكأنى أستحث القطار على سرعة المسير ، بينما كنت أرفع عقيرتى منشداً بيت الشعر على صوت حركة القطار .

كنت أنشد الشعر ، وأنا أتحرك مضطرباً ذات اليمين وذات الشمال ، وإلى الأمام والخلف بحركة اضطراب القطار فى سرعته . وبدأ القطار يقل من مسيره بينما كانت دواليبه تردد الشعر متباطئة تدريجياً ، الى أن خلتها ترسل آخر أنفاسها فى خفوت وبطء ، وهى ترد عجز البيت إذ تقول بصوت متقطع . فكأنه . . . ما . . . مسك . . . الجـ . . . هد .

وهنا وقف القطار عند الحرف الأخير . وأسرعت نحو أختى فى لهفة أستطلع أمرها ، فاذا بى أراها بين الموت والحياة ، فحملناها بمؤازرة بعض السيدات الى فناء المحطة ، واستقللنا أول سيارة صادفتنا ، ثم صحت بالسائق قائلا — أسرع الى القلعة . . . بأقصى ما تستطيع . . .

[البقية فى الصفحة ٦١٦]